سورة التين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾

هذه هي السورة العشرون في الترتيب التراجعيّ الذي اتّبعناه في دراسة سوَر القرآن الكريم، وهي، مع الفاتحة، الحادية والعشرون والأخيرة بين قصار السوَر المدروسة.

تتألّف السورة من ٣٤ لفظاً، وسنقف في هذه الألفاظ، وفيما يربطها بعضها ببعضٍ من علاقاتٍ لغويّةٍ ونحويّةٍ وبلاغيّة، وما أضافته إلى اللّغة العربيّة من مصطلحاتٍ وتراكيب وسبائك ومعانٍ وصور، عند ما لا يقلّ عن ٥٩ موقعاً جديداً أضافتها إلى حياتنا اللغويّة.

وتستقلّ السّورة عن غيرها من سور القرآن الكريم بما لا يقلّ عن ١٣ موقعاً لغويّاً، هذا إذا استثنينا السبائك التي لا نجد بين أيدينا الوسائل التقنيّة التي تمكّننا من إحصاء كثيرٍ منها وتوثيق تكراره أو عدم تكراره في القرآن، ممّا يؤكّد للسّورة، شأن سائر السّوَر، شخصيّتها اللغويّة المميَّزة.

وتتوزّع المواقع اللغويّة الخاصّة بالسورة بين ستّة ألفاظ: (التّين، سينين، الأمين، تقويم، سافلين، يكذّبك) وستّة تعبيرات: (والتّين والزّيتون، البلد الأمين، أحسن تقويم، أسفل سافلين، فما يكذّبك بعدُ، يكذِّبكَ بالدّين).

وسندرس المواقع الجديدة، كما انتهجنا، تحت خمسة عناوين، هي: الألفاظ والمصطلحات، والصيغ اللغويّة والعلاقات الداخليّة، والسبائك اللغويّة، والمواقع المنفتحة، وجوامع الكلِم.

أوّلاً: الألفاظ والمصطلحات:

١ إلى ٤- التّين والزّيتون وطور سينين:

لا نستطيع أن نتحدّث عن هذه الألفاظ الأربعة منفصلةً، رغم أنّ لكلٍّ منها قصّته ووضعه المخالف لبقيّة الألفاظ. وربّما لا يجد القارئ غرابةً في تصنيفنا للّفظين الأخيرين (طور، وسينين) بين الألفاظ الجديدة في القرآن، ولكنّني أتوقّع أن يمطّ شفتيه ويُحدّ عينيه وهو ينظر إلى اللفظين الأوّلين (التّين، والزّيتون) وقد أدرجناهما بين الألفاظ الجديدة!

والحقّ أنّ العرب قد عرفوا هذين اللفظين، وعرفوا الثّمرتين، فأكلوا التّين، واستخدموا زيت الزّيتون واصطبغوا بصباغه وأضاؤوا مصابيحهم منه وداووا مرضاهم به. ولكنّ المفسّرين اتّجهوا في تفسيرهما اتّجاهاتٍ قد تفاجئنا جميعاً، وسنلمّ بتفاصيلها عند حديثنا عن المواقع المنفتحة في السورة، وحسبنا أن نذكر هنا أنّهم رأوا فيهما، وفي اللفظين الآخَرين، اصطلاحاتٍ ورموزاً لأشخاصٍ أو مواقع أو أحداثٍ تاريخيّةٍ تغطّي مساحةً كبيرةً من تاريخ النبوّة والأنبياء في منطقة الشّرق الأوسط.

وكان أحدث ما قدّمه المفسّرون من تأويلاتٍ لهذه الألفاظ هو ما ذهب إليه الإمام محمّد عبده (ت١٩٠٥م) في تفسيره لجزء (عمّ)، حيث وقف عند هذه الألفاظ وقال ما خلاصته:

"إنّ الله يذكّرنا بأربعة فصولٍ من كتاب الإنسان الطّويل:

(فالتّين) إشارةٌ إلى عهد الإنسان الأوّل (آدم) فإنّه كان وزوجته (في الجنّة) يخصفان عليهما من ورق التّين..

و(الزّيتون) إشارةٌ إلى عهد نوح حين أرسل طيراً (من سفينته) فرجع إليه يحمل (البشرى) غصناً من شجر الزيتون..

و﴿طُورِ سِينِينَ﴾ حيث (الجبل الذي كلّم الله موسى عليه) إشارةٌ إلى عهد الشريعة الموسويّة وظهور نور التّوحيد في العالم بعدما تدنّست جوانب الأرض بالوثنيّة..

ثمّ منّ الله على البشر ببداية تاريخ ينسخ جميع تلك التّواريخ، وهو عهد ظهور النّور المحمّديّ من مكّة المكرّمة ﴿ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾.(١)

وفضلاً عن ذلك فإنّ لفظ (الطُّور) ولفظ (سينين) هما من الألفاظ التي لم يعرفها الشعر العربيّ، أو على الأقلّ ما بين أيدينا من هذا الشعر. صحيحٌ أنّنا نجد لفظ (الطّور) مرّةً واحدةً عند الشاعر العربيّ اليهوديّ السموأل بن عادياء (ت٦٤ ق.هـ)، ولكنّنا، مرّةً أخرى، نشكّ، وربّما أكثر من مجرّد شكّ، في صحّة نسبة الأبيات إليه؛ لما فيها من روحٍ وألفاظٍ إسلاميّةٍ ومسيحيّةٍ تخالف ما عند اليهود من عقائد، إذ لا يؤمنون بالمسيح عليه السلام الذي يصفه السموأل بـ (مسيحنا)، ولما فيها كذلك ممّا يخالف ثقافة الجاهليّة، من رقّة الأسلوب وليونة الألفاظ، كما يمكن أن يتبيّن القارئ العاديّ لها، بَلْهَ الناقدَ الممحّص:

ألسْنا بني الطُّور المقدّس والّذي ... تَدخْدَخَ للجبّـــار يومَ الزلازلِ
ومِن هيبةِ الرّحمـــن دُكَّ تَزلزُلاً ... فشرّفَه الباري على كلّ طـــائلِ
وناجى عليه عبـــدَه وكليمَـــهُ ... فقدَّسَنا للـــربِّ يـــومَ التُّباهلِ
وفي آخرِ الأيّامِ جـــاء مسيحُنا ... فأهدى بني الدّنيا سلامَ التّكاملِ

وعلى حين يتكرّر اللفظ (طور) عشر مرّاتٍ في القرآن الكريم فإنّ اللفظ (سينين) يقتصر على هذه السورة فلا يتكرّر في غيرها، ولا نجده في الشعر

(١) عبده، محمد. **تفسير القرآن الكريم "جزء عم"**، القاهرة: مطبعة مصر، ط٣، ١٣٤١هـ، ص١١٩.

الجاهليّ، ولا في الحديث الشريف. ثمّ إنّ السورة تختصّ وحدها بلفظ (التّين) دون لفظ (الزّيتون) الذي يتكرّر في أربعة مواضع أخرى من القرآن.

٥- الأمين:

رغم تكرار هذا اللفظ ١٤ مرّةً في القرآن فإنّ سورة (التّين) هي وحدها التي استُخدمَ فيها بمعنى اسم الفاعل (آمِن) أو بمعنى اسم المفعول (مأمون) رغم أنّه جاء على صيغة الصفة المشبّهة (فعيل).

لقد كان العرب، حتّى نزول السورة، يقولون (فلانٌ أمين) و (بلدٌ آمنٌ أو مأمون) ولا يُقال (بلدٌ أمين)، كما قالوا (سيفٌ أمينٌ) أي قويٌّ وقاطع. ويتبيّن لنا بعض هذه المعاني من خلال الاستعمالات الأخرى للّفظ في القرآن الكريم، وكذلك من خلال الاستخدام المكثّف له في أشعارهم قبل الإسلام، كما في هذه الأبيات:

أميناً على سـرِّ النّسـاءِ وربّما أكـونُ على الأسـرارِ غيرَ أمينِ

زهير بن جناب الكلبيّ (ت٦٤ ق.ه)

عَجِلْتُـمْ علينا حِجّتين عليكـمُ وما يشـأ الرحمنُ يَعقِدْ ويُطلِقِ
هو الكاسرُ العظمَ الأمينُ وما يشأْ مـن الأمـرِ يجمعْ بينهُ ويفرِّقِ

سلامة بن جَندل (ت٣٢ ق.ه)

وَدَعـا بمُحكَمَةٍ أميـنٍ سَكُّها مِـن نَسْـجِ داودٍ أبي سَلّامِ

الأسود بن يَعفُر النّهشليّ (ت٢٣ ق.ه)

فاستُخدم اللفظ في بيت الكلبيّ لوصف الشاعر لنفسه بأنّه أمينٌ على أسرار النّساء، وفي بيت ابن جندل لوصف الإله القويّ، وفي بيت النهشليّ لوصف نسج الدرع المتين، فهو أمينٌ أي دقيقٌ ومُحْكَم، فلم يتجاوز اللفظ في الاستعمالات الثلاثة معنى الصفة المشبَّهة.

أمّا في الحديث الشّريف فهو، على تكراره الكثير، لا يتعدّى أيضاً المعنى المعروف له عند العرب، كما يمكن أن نلاحظ في الأحاديث التالية:

- ألا تأمنوني وأنا أمينُ مَن في السّماء، يأتيني خبرُ السّماءِ صباحاً ومساءً؟[١]
- لكلّ أمّةٍ أمينٌ وأمينُ هذه الأمّةِ أبو عُبَيدةَ بنُ الجرّاح[٢]
- لأَبعَثَنَّ إليكم رجلاً حَقَّ أمينٍ حَقَّ أمين[٣]
- الصّائمُ المتطوّعُ أمينُ نفسِه، إنْ شاءَ صامَ وإنْ شاءَ أفطَر[٤]

٦- تقويم:

هذا لفظٌ خاصٌّ بهذه السورة وحدها، وهو، إلى ذلك، يحمل معنىً لم يعرفه العرب له قبل القرآن، على ندرة استعمالهم لهذا اللفظ، إذ لا نجده في الشّعر الجاهليّ إلاّ مرّةً واحدةً عند علقمة الفحل (ت٢٠ ق.ه) وقد استخدمه بالمعنى اللغويّ المجرّد له، وهو الاستقامة، أي عكس الانحناء أو الانعطاف، كما يتّضح لنا من سياق البيت، وهو يصف فيه مِقبض القوس (العجْس):

وفي الشّمالِ مِنَ الشّريان مُطعَمُهُ كَبْداءُ في عَجْسِها عَطْفٌ وتقويمُ

أمّا اللّفظ القرآنيّ فهو يحمل أبعاداً أخرى تخرج به إلى آفاقٍ غير محدودةٍ من المعاني، كما سوف نفصّل القول عند حديثنا عن المواقع المنفتحة.

ولا وجود للّفظ في الحديث الشّريف.

---

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٢، ص٧٤١، حديث رقم ١٠٦٤.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٤، ص١٥٩٢، حديث رقم ٤١٢١.

(٣) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٤، ص١٨٨٢، حديث رقم ٢٤٢٠.

(٤) البيهقي، **سنن البيهقي الكبرى**، مرجع سابق، ج٤، ص٢٧٦، حديث رقم ٨١٣٣.

٧- رددناه:

لم أعثر على هذا اللفظ فيما بين أيدينا من الشعر الجاهليّ، واستعماله في هذه الآية يمكن أن ينفتح، كما سوف نرى، على عدّة معانٍ، خلافاً لاستعماله في المرّة الوحيدة الأخرى التي تكرّر بها في القرآن، وهي قوله تعالى:

- ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ [القَصص: ١٣]

أي (أرجعناه). وفي الحديث الشّريف لا يتجاوز اللفظ المعنى المعروف له، أو معنى الإجابة عن السؤال أو الكلام، كما نتبيّن في الأحاديث الآتية:

- .. إنّ اللهَ قبض أرواحَكم حين شاء، وردَّها عليكم حين شاء[١]
- .. فقالتِ الأنصارُ: رَدْنا على رسولِ اللهِ رأيَه[٢]
- .. إنّما منَعني أنْ أرُدَّ عليكَ أنّي كنتُ أصلّي[٣]

مَن سمعَ رجلاً يَنشُدُ ضالّةً في المسجدِ فلْيَقُلْ: لا رَدَّها اللهُ عليكَ[٤]

٨- سافلين:

تختصّ سورة (العلق) بهذا الجمع الغريب فلا يتكرّر في غيرها من السوَر، ولا نجده كذلك في تراثنا الشعريّ الجاهليّ. وموضع الغرابة فيه أنّه ليس جمعاً للّفظ (أسفل) الذي سبقه، فهذا الأخير يُجمع على (أسافل) مثل (أفضل وأفاضل) و (أكرم وأكارم)، ولا يبقى إلاّ أن يكون جمعاً للّفظ (سافل) وهو لفظٌ لم يعرفه الشعر الجاهليّ كذلك، ونحن نجمعه اليوم على (سَفَلَة) وليس على (سافلين).

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٢١٤، حديث رقم ٥٧٠.

(٢) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٢٣، ص٩٩، حديث رقم ١٤٧٨٧.

(٣) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٤٠٧، حديث رقم ١١٥٩.

(٤) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج١، ص٣٩٧، حديث رقم ٥٦٨.

إنّه إذن، ليس من الجموع القياسيّة العاديّة، وهو أيضاً من الألفاظ التي يستقلّ بها القرآن الكريم، كما تستقلّ به هذه السورة.

ولا يَرِد اللفظ في الحديث الشريف إلاّ في معرض الإشارة إلى هذه الآية.

٩- آمنوا:

عرفنا في سورة (العصر) ثمّ في سورة (البيّنة) جدّة هذا الاصطلاح واقتصاره على القرآن الكريم الذي فرّق به بين من اتّبع الرسول ﷺ ومن نكص عن دعوته.

١٠- الصالحات:

كما عرفنا في السورتين المذكورتين الاستعمال القرآنيّ الجديد لهذا الجمع، واختصاصه به لفظاً ومعنىً.

١١- ممنون:

رغم احتمال هذا اللفظ لأكثر من معنىً، كما سوف نرى في حديثنا عن المواقع المنفتحة، فإنّ الشعر الجاهليّ يخلو منه تماماً، كما يخلو منه الحديث الشّريف.

١٢- يكذّبك:

خصوصيّة هذا الفعل المضعّف تقتصر على هذه السورة وحدها؛ إذ لا يتكرّر، بهذا الاستعمال، في أيّة سورةٍ أخرى، رغم ورود الفعل ١٧٧ مرّةً في القرآن.

ويمكن أن نتبيّن طبيعة هذه الخصوصيّة لو قارنّا بين معناه هنا ومعناه في الآية التالية:

- ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ [الفرقان: ١١]

فالفعل (كَذّبوا) في آية (الفرقان) يعني (أنكروا) أمّا في آية (العلَق) فقد ارتبط بمفعوله (الكاف) ولكنّ هذا المفعول هو بمعنى الفاعل، فالضمير (ك) هو المفعول إعرابيّاً، إلاّ أنّه في المعنى يعود على الذي يكذِّب وليس على الذي يكذَّب، ويكون

المعنى على هذا: (ما يجعلك تكذِّب بالدّين؟)، وهي من أغرب العلاقات النحويّة في لغة القرآن الجديدة.

ولا نجد الفعل في تراثنا بهذه العلاقة النحويّة المتطوّرة وهذا المعنى الإضافيّ الجديد (يجعله يكذِّب) الذي اكتسبه هنا، لا قبل القرآن ولا بعده، ولا في الحديث الشريف.

١٣- بالدّين:

سبق أن تحدّثنا عن هذا اللفظ عند تحليلنا لآية ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ من سورة (الفاتحة)، وعرفنا المعنى الاصطلاحيّ الجديد الذي يحمله، ولا سيّما إذا فُسِّر بأنّه يوم الحساب، وهو واحدٌ من معانٍ عدّةٍ يمكن توجيه اللّفظ إليها.

١٤- أحكَم:

هذا اسم تفضيلٍ من الفعل الثلاثيّ (حَكَم) بمعنى (عَدَل) أو بمعنى (كان حكيماً) أو بمعنى (أتقَن الصنع) أو بمعنى (ساد وتولّى الأمر). ولا نعرف لاسم التفضيل هذا استعمالاً في تراثنا الجاهليّ يحمل أيّاً من هذه المعاني، كما لم نعرف له مثل هذه الاستعمالات بعد ذلك إلى يومنا الحاضر، ولكنّنا نجده مرّتين على الأقلّ في الحديث الشّريف:

- .. وكان أَحكَمَ الرّجُلين[1]

- قال موسى: يا ربِّ أيُّ عِبادِكَ أَحكَمُ؟ قال: الذي يَحْكُمُ للنّاسِ كما يَحكُمُ لنفْسِه[2]

١٥- الحاكمين (لفظٌ جديد):

وهو أيضاً لفظٌ خاصٌّ بالقرآن الكريم، فلم يُستخدم هذا الجمع في الشعر الجاهليّ ولا فيما بعده، وإنّما قالوا: (الحكّام) أو (الحكماء) أو (المحكّمون). ولا نجد اللفظ في الحديث الشّريف.

---

(١) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٢٩، ص١٦٥، حديث رقم ١٧٦٢٥.

(٢) البستي، **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، مرجع سابق، ج١٤، ص١٠٠، حديث رقم ٦٢١٧.

ثانياً: الصيغ اللغويّة والعلاقات الداخليّة

١- ٢- والتّين، والزّيتون:

يكثر في القرآن الكريم افتتاح السّوَر بالقسم، وغالباً ما يقع هذا القسم بما لم يعهده البشر من مُقْسَماتٍ بها، كالسماء والأرض والنّهار والليل والشّمس والقمر والنجوم والطارق والفجر والضّحى والعصر والبلد والوالد والولد والنّفس والعاديات واليوم الموعود والشّاهد والمشهود، وغيرها من المُقْسَمات التي كانت تفاجئ العرب من غير شكّ وهم يسمعونها لأوّل مرّة، بما فيها من جدّةٍ وغرابةٍ على أسماعهم، ومن خروجٍ على أعرافهم اللغويّة والثقافيّة، ثمّ ما لبثوا أن فقدوا، مثلما فقدنا نحن اليوم، الإحساس بغرابة هذا النوع من القسم، إذ ما فتئوا، وما فتئنا منذ الطفولة، نكرّر آياته صباح مساء، فقتلت الأُلفة والزمن كلّ ما كان يمكن أن يثيره لدينا مثلُ هذا القَسَم من شعورٍ محتمَلٍ بالغرابة والجدّة.

ولكنّ القَسَم بثمرةٍ عاديّةٍ جدّاً كثمرة التّين، ثمّ بالزّيتون بعدها مباشرةً، سيكون له موقعه الخاصّ من الغرابة عند العربيّ الأوّل، ولا سيّما حين لم يكن يدري بادئ ذي بدءٍ ما يحمله القسم بهاتين الثمرتين من معانٍ رمزيّةٍ اقترحها لهما المفسّرون فيما بعد، وما يزالون يقترحونها إلى اليوم، كما سبق أن مهّدنا، وكما سنرى بتفصيلٍ أكثر أثناء حديثنا عن المواقع المنفتحة في السّورة.

وقد يتكرّر القسم نفسُه أكثر من مرّةٍ في القرآن، ولكنّ القسم بالتّين والزّيتون اقتصر على هذه السّورة وحدها دون باقي السّوَر.

٣- التّين والزّيتون:

بدهيٌّ ألاّ نجد هذا الثنائيّ المؤلّف من اجتماع هاتين الثمرتين في تعبيرٍ واحدٍ، وفي مثل هذا السياق النحويّ، في تراثنا الجاهليّ أو الإسلاميّ، شعره أو نثره، ولا في الحديث الشريف، وهو لا يتكرّر في القرآن الكريم في غير هذا الموضع.

٤- طُور سِينين:

تعبيرٌ آخر لم يعرفه تراثنا الجاهليّ أو الإسلاميّ حتّى اليوم، واقتصر على سورة (التّين)، فلم يتكرّر في غيرها من السّوَر، ولكنّنا نجده على نمطٍ لغويٍّ مختلفٍ (طُور سَيناء) في سورة (المؤمنون):

- ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴾[٢٠]

ولا وجود لهذا التعبير في الحديث الشّريف.

٥- وهذا البلد:

هذا نمطٌ مختلفٌ من القَسَم أيضاً لا نعهده في تراثنا الشعريّ أو النثريّ حتّى الآن. ولا يتكرّر هذا القسم في غير هذه السّورة، ولا وجود له في الحديث الشّريف.

ومن الواضح أنّ تميّزه يأتي من أن المقْسَم به جاء اسمَ إشارةٍ (هذا) متّصلاً مباشرةً بحرف القسم، أو العطف، وهو (الواو) من غير ظهور فعل القَسم قبله. ولعلّ أقرب أنواع القسَم القرآنيّ إلى هذا التركيب، رغم بعض الاختلافات، هو قوله تعالى في آيةٍ أخرى:

- ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾[البلد: ١]

فقد جاء المُقسَم به هنا اسم إشارةٍ أيضاً (هذا) ولكنّ فعل القسم، خلافاً لآية (التّين)، مذكورٌ في الآية (أُقسم)، وجاء هذا الفعل مسبوقاً بـ (لا)، مع اقتران المُقسَم به (هذا) بحرف الباء (بهذا).

٦- البلد الأمين:

تعبير آخر من التعبيرات الخاصّة بالقرآن الكريم، بل الخاصّة بهذه السّورة وحدها. ولا وجود له في الحديث الشّريف.

٧- لقد خَلقْنا:

لا شكّ أنّ العربيّ قد فوجئ وهو يسمع هذا التعبير لأوّل مرّة، مثلما فوجئ حين سمع مطلع كلٍّ من سوَر (النّاس والفلق والإخلاص) التي ابتدأت بفعل الأمر: (قُلْ). ولا شك أنّ هذه الثقة غير العاديّة التي ينطلق منها الخطاب في الآية: (نحن خلقنا) من شأنها أن تدفع العربيّ الأوّل إلى التفكير والبحث عن الأسس والحقائق والقوّة المتفوّقة التي تشكّل الخلفيّة غير المنظورة لهذه الثقة.

٨- خَلقْنا الإنسان:

تشارك سورةَ (التين) سوَرٌ أخرى في هذا التعبير نفسه، ولكنّه يبقى مع ذلك تعبيراً قرآنيّاً لا نجده، ولا ينبغي أن نجده، في تراثنا الشعريّ أو النثريّ، قبل الإسلام أو بعده، ولا في الحديث النبويّ طبعاً.

٩- أحسن تقويم:

بغضّ النظر عن المعاني المتعدّدة التي يمكن أن يحملها هذا التعبير، يظلّ صيغةً خاصّةً بالقرآن الكريم، فلا نجدها في تراثنا قبل الإسلام أو بعده، شعراً أو نثراً، وإلى اليوم. والتعبير خاصٌّ بهذه السورة فلا يتكرّر في غيرها، ولا وجود له في الحديث الشّريف.

١٠- خلقنا .. ردَدْناه:

لنضعْ أنفسَنا مكان العربيّ الأوّل وهو يسمع هذه السّورة لأوّل مرّة: لقد سمع أوّلاً الفعل (خلقنا) فماذا يمكن أن يتوقّع بعد فعل (الخَلْق) من كلام؟ ربّما الحديث عن (إحكام الخلْق)؟ نعم، ولقد حدث هذا حقّاً: ﴿ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾، ثمّ الحديث، ربّما، عن النِّعَم التي أنعم بها الخالق على هذا المخلوق الجديد، ثمّ الحديث، ربّما، عن جحود هذا المخلوق وإنكاره لنِعَم الخالق، ولكن آخر ما يمكن أن يخطر في باله هو أن يتحدّث الخالق عن إعادة المخلوق إليه، أو إلى المصير الذي ينتظره عنده، والأغرب من كلّ ذلك أن يكون الحديث عن هذه

الإعادة بصيغة الفعل الماضي وليس المضارع، وكأنّ عمليّة الإعادة قد تمّت حقّاً، وإذن فمن حقّ من يسمع الآية الآن أن يتفقّد نفسه ويتحسّس رأسه متسائلاً: أما زلتُ موجوداً على سطح هذه الأرض، أم أنّ هذه الحياة هي مجرّد حلم؟!

إنّ المقابلة بين الخلق والارتداد، والتعبير عن هذا الارتداد بالفعل الماضي، بغضّ النظر عن طبيعة هذا الارتداد، وكأنّه أمرٌ قد حصل وانتهى لكلّ بني البشر، مواجهةٌ مع الحقيقة الحتميّة بعودة كلّ مخلوقٍ إلى خالقه، وهي مواجهةٌ حادّةٌ وخارجةٌ عن التوقّعات البشريّة التقليديّة لاستعمال هذين الفعلين ضمن سياقٍ واحد.

١١- أسفلَ سافلِين:

هذا تعبيرٌ تختصّ به سورة (العلق) وحدها، فلا يتكرّر في أيّ موضعٍ آخر من القرآن، ويخلو التراث الشعريّ الجاهليّ منه تماماً، وإن شاع فيما بعد وغدا جزءاً من لغتنا اليوميّة. ولا يرد في الحديث الشريف إلاّ في معرض الإشارة إلى هذه الآية أو الاتّكاء على صيغتها.

١٢- الّذين آمنوا:

كان الحديث حتّى الآن عن الإنسان، وبصيغة المفرد الغائب (هو): (خلقناه هو، رددناه هو)، وستتوقّع الأذن العربيّة التقليديّة أن تسمع بعد ذلك تتمّة هذا السياق، ضمن مضمون الآية التالية له طبعاً، ولكن في صيغةٍ من هذا النوع:

إلاّ من آمن.. فله أجرٌ، أو:

وأمّا من آمن.. فسوف يؤجر.. إلخ

ولكنّ الخطاب قفز فجأةً ملتفتاً من المفرد الغائب (هو) إلى الجمع الغائب (هم): (آمنوا) وهو التفاتٌ من شأنه أن يُحدث في أُذن العربي الأوّل ما يشبه الصدمة الكهربائيّة لمخالفته الإيقاع اللغويّ التقليديّ الذي اعتادت ثمّ توقّعت هذه الأذن أن تسمعه.

وسيتساءل العربيّ الأوّل، كما يمكن أن نتساءل نحن اليوم: كيف يستثنى الجمع من المفرد؟ قد نستطيع استثناء المفرد من الجمع، فنقول:

جاء النّاس إلاّ مصطفى، أو نقول:

صرفت أنواع العملة إلاّ الدنانير،

ولكنّنا لن نقول:

جاء مصطفى إلاّ النّاس، ولا:

صرفت الدينار إلاّ النقود

صحيحٌ أنّ لفظ (الإنسان) هو مفردٌ في اللفظ وجمعٌ في المعنى، ولكنّنا، في لغتنا البشريّة، نراعي عادةً هذه الحقيقة، فنستثني اللفظ المفرد من اللفظ المفرد، أو اللفظ المفرد من اللفظ الجمع، أو، على الأكثر، اللفظ الجمع من اللفظ الجمع، ولكن ليس اللفظ الجمع من اللفظ المفرد كما وقع في هاتين الآيتين.

١٣- إلاّ الّذين آمنوا:

بعد أن تَفاجأ العربيّ الأوّل بإعلان حتميّة عودة المخلوق إلى خالقه، أو انقلابه إلى أسفل سافلين، وإلى درجةٍ عُدّتْ معها هذه العودة، أو هذا الانقلاب، وكأنّهما قد وقعا حقّاً، يواجِه الآن مفاجأةً لا تقلّ وقعاً عن الأولى: الاستثناء!

لقد كان يتوقّع أن يسمع في سياقٍ كهذا، لو حافظنا ما استطعنا على كلمات الآية كما هي، شيئاً من مثل:

أمّا الّذين آمنوا.. فلهم أجرٌ..

أو: ولكنّ الذين آمنوا.. لهم أجرٌ..

ولكنّه سيدهَش الآن بطبيعة الاستثناء! فهل يوحي هذا الاستثناء، للوهلة

الأولى، بأنّ العودة قد لا تكون حتميّةً على كلّ النّاس؟ إنّ الآية تستثني الذين آمنوا، فهل هو استثناءٌ لهم من الموت يا ترى -هكذا سيتساءل العربيّ الأوّل- ومن ثمّ استثناءٌ من العودة إلى خالقهم؟ أم هو استثناءٌ لهم من درجة ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ التي سيؤول إليها سائر النّاس بعد الموت؟ إنّنا نتوقّع أن يظلّ العربيّ في حيرةٍ أمام هذا الاستثناء إلى أن يتمّ جلاء هذه الفكرة في النصوص النبويّة والقرآنيّة الأخرى.

١٤- عمِلوا الصالحات:

سبق أن عرفنا في سورتي (العصر) و (البيّنة) جدّة هذا التعبير وانفراد القرآن به دون باقي تراثنا الشعريّ والنثريّ، رغم تكراره ٥٥ مرّةً في القرآن الكريم.

١٥- فلهم أجرٌ:

لقد حلّ اللفظ (لهم) في القرآن الكريم محلّ (ينالون) أو (يكافَؤون) أو (يعاقَبون) في لغتنا. نقول في لغتنا البشريّة، ونحن نريد التعبير عن هذا المعنى القرآنيّ نفسه:

الذين يعملون عملهم بإتقانٍ سينالون أجورهم كاملةً، أو:

من يعملْ فسوف يحصل على أجره من دون نقصان، أو:

العامل سيُدفع له أجره من غير تأخير

ولن نقول:

الذي يعمل له أجرٌ غير منقوص، أو:

العاملون لهم أجورهم من غير نقصان.

١٦- غيرُ ممنون:

لقد أظهر لنا المثالان السابقان أيضاً، رغم اختلافهما عن لغتنا في الجزء الأوّل منهما، كيف نعبّر بلغتنا اليوميّة عن معنى ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ وكيف يختلف

تعبيرنا البشريّ مثل (غير منقوص) أو (من غير نقصان) عن التعبير القرآنيّ الذي ما يزال إلى الآن خاصّاً بالكتاب الكريم وحده، فلا نعثر عليه في تراثنا العربي، لا قبل الإسلام ولا بعده، ولا وجود له في الحديث الشريف أيضاً.

١٧- يكذّبُكَ بـ:

عرفنا في سورة (الماعون) كيف اختصّ القرآن بتعدية الفعل (يكذّب) بحرف الباء دون الشعر الجاهليّ، وعرفنا كيف يتعدّى هذا الفعل بنفسه، أي من دون الاستعانة بحرف الباء، إذا كان المفعول شخصاً، وكيف يتعدّى بالباء إذا كان المفعول غير ذلك كما هو هنا (الدّين)، وكما في الآية التي جمعت الحالتين كلتيهما:

- ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾ [الفرقان: ١٩]

فتعدّى الفعل (كذّب) هنا بنفسه إلى الضمير (كُم) العائد على **المكذَّبين** من البشر، ولكنّه تعدّى بالباء (بما) إلى الأقوال التي كُذِّب بها.

١٨- فما يكذّبكَ:

لأوّل مرّة في هذه السّورة يتوجّه الخطاب إلى المفرد المخاطب (أنتَ). لقد بدأ مجرّداً من أيّ انتماء في آيات القَسَم الثلاث التي بدأت بها السورة (وإن كان القسم عائداً في النهاية على الله تعالى، رغم أنّه لا يوجد في هذه الآيات الثلاث ما يعود صراحةً على المتكلّم، وهو الذات الإلهيّة، فلم يقل مثلاً: أُقسِم بالتّين، أو: إنّي أُقسِم). ثمّ يظهر الضمير فجأةً ولكن في صيغة المتكلّمين (نحن) في الآيتين الرّابعة والخامسة بقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ ﴾. وهنا تتّجه دفّة الحديث اتّجاها آخر بحيث يتركّز الضوء على هذا المخلوق الذي يبدأ الحديث عنه بلفظ الجمع – المفرد الغائب (الإنسان – هو) في قوله تعالى: ﴿ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ ، ثمّ بالضمير المفرد الغائب (هُ) في قوله: (رددناهُ) وكنّا نتوقّع بعد ذلك أن يستمرّ الحديث عن هذا المخلوق بالصيغة نفسها (المفرد الغائب) ولكنّنا نفاجأ به وقد

تحوّل إلى صيغة (الجمع الغائب) في الفعل (آمنوا)، وقد جاء هذا الغائب الجمع استثناءً من ذلك الغائب المفرد كما رأينا.

١٩- ما يكذّبكَ بعدُ:

هذا التعبير الإنكاريّ الخاصّ، المبتدئ باستفهام والمنتهي بظرفٍ منقطعٍ عن الإضافة (بعدُ)، لم يتكرّر في أيّة سورةٍ أخرى من القرآن، ولم يعرفه الشعر الجاهليّ، ثمّ لا نجده بعد ذلك في أيٍّ من صفحات تراثنا العربيّ، شعره أو نثره، حتّى الآن، ولا وجود له في الحديث الشريف.

٢٠- يكذّبُكَ بالدّين:

لقد ارتبط الفعل (يكذّب) هنا، وهو يحمل المعنى الجديد والخاصّ الذي عرفناه له، باللّفظ (الدّين) مع الفصل بينهما بمفعول الفعل (يكذّب)، وهو الكاف. ولكنّ هذا المفعول الأخير، كما رأينا، ليس هو المفعول العاديّ لهذا الفعل، فالمفعول (الكاف) هو، من الناحية العمليّة، فاعلٌ وليس مفعولاً، والتقدير: ما الذي جعلك تكذّب بالدّين.

هذا كلّه يكوّن أمامنا عبارةً تقوم على علاقاتٍ جديدةٍ لهذا الفعل مع مفعوله الأوّل (الكاف) ومع مفعول الثاني، من حيث المعنى، وهو (الدّين)، وهي علاقةٌ لم يعرفها الفعل في تراثنا العربيّ قبل الإسلام أو بعده، ولا الحديث الشريف أيضاً.

٢١- أليس الله بـ:

هذا التعبير يتكرّر مرّتين أخريين في القرآن الكريم خارج هذه السورة، ولكنّنا لا نجد له أثراً في الشعر الجاهليّ، ولا في الحديث الشّريف.

٢٢- أحكم الحاكمين:

تعبيرٌ قرآنيٌّ خاصّ، ويتكرّر مرّةً أخرى في سورة (هود: ٤٥)، ولكن لا وجود له في الشعر الجاهليّ، ولا في الحديث الشريف.

ثالثاً: السبائك اللغويّة

١ – والتّينِ والزّيتونِ. وطورِ سينين:

هذه سبيكةٌ تقتصر على القرآن وحده، وعلى هذه السّورة دون غيرها من السوَر. وبإمكاننا ملاحظة الفرق بين صيغة القسم هذه، وهي مؤلّفةٌ من أربعة ألفاظ: ثلاثةٌ منها تعاطفت بحرف العطف (الواو) وأضيف الرابع (سينين) إلى آخر هذه المعطوفات، وصيغ القسم الأخرى في القرآن، لتتبيّن خصوصيّتها وتفرّدها في البناء والإيقاع، مثلها مثل كثيرٍ من آيات القسم في القرآن، كما في الصيغ التالية، وقد بدأت بها أربع سوَرٍ متتاليةٍ سبقت سورةَ (التّين):

- ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾ [الفجر: ١ – ٣]
- ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ [الشّمس: ١ – ٢]
- ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل: ١ – ٢]
- ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ [الضُّحى: ١ – ٢]

ولو أنعمنا النظر في التركيب النحويّ لهذه الصيغ الأربع الأخيرة، لوجدنا لكلٍّ منها خصوصيّته وبناءه النحويّ، ومن ثمّ إيقاعه المختلف، فلا يشبه بناءُ أيٍّ منها أيّاً من أبنية السبائك الثلاث الأخرى، أو سبيكتنا في سورة (التين).

٢– لقد خلقنا الإنسانَ في أحسنِ تقويم:

نستطيع أن نتبيّن تفرّد هذه السبيكة القرآنيّة لو قارنّاها مع أقرب السبائك البشريّة إليها، كقولنا مثلاً:

لقد جعلنا المصنع في أحسن حال

فاللفظ (حال) في جملتنا، والذي حلّ محلّ (تقويم) في الآية، ليس مصدراً،

أمّا (تقويم) فمصدر، ولهذا المصدر وضعه الخاصّ أيضاً، فهو يتأرجح بين الاسميّة، فيكون بمعنى (قامة) أي: (خلقناه في أحسن قامة)، وبين المصدريّة، فيكون بمعنى (بناءٍ) أو بمعنى (حسابٍ وتقديرٍ وإحكام). أمّا لو أردنا إحلال مصدرٍ محلّ الاسم (حال) في جملتنا، فلا بدّ من تغيير بناء الجملة، لتكون شيئاً من هذا القبيل:

لقد جعلنا المصنع ينتج أحسن إنتاج. ولا نقول:

لقد جعلنا المصنع في أحسن إنتاج.

ولكنّ العنصر الأهمّ في تفرّد هذه السبيكة وتميّزها يتركّز في تعدّي الفعل (خلق) بحرف الجرّ (في) المتعلّق بحالٍ مقدّرةٍ قبله أي (خلقنا الإنسان كائناً في أحسن تقويم). فرغم تكرار هذا الفعل في القرآن الكريم ١٨٤ مرّةً لم يتعدّ بهذا الحرف المتعلّق بحالٍ محذوفةٍ إلاّ في هذه الآية وفي آيةٍ واحدةٍ أخرى غيرها، وذلك قوله تعالى:

- ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ [البلد: ٤]

وربّما تعدّى بهذا الحرف نفسه في آياتٍ أخرى، ولكنّ الحرف يكون هناك بمعنى الظرفيّة فلا يحتاج إلى تقدير حالٍ قبله، كقوله تعالى:

- ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الأعراف: ٥٤، ويونس: ٣]

- ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦]

أمّا في لغتنا البشريّة فلا يحتاج هذا الفعل عادةً إلى الحرف (في) ليتعدّى به، إلاّ أن يكون هذا الحرف ظرفيّاً، فنقول:

خلق الله الناسَ مختلفين، أو نقول:

خلق الله النّاس بطبائع مختلفة

فيتعدّى الفعل بنفسه، أو بالباء، وليس بالحرف (في).

٣- ثمّ رددناه أسفلَ سافلين:

لهذه السبيكة خصوصيّتها التي تميّزها عن أيّة سبيكةٍ في تراثنا الجاهليّ أو الإسلاميّ، كما تختلف عن أيّة سبيكةٍ قرآنيّةٍ أخرى، وذلك بصياغتها النحويّة واللغويّة وبنائها الإيقاعيّ الخاصّ، كما رأينا.

٤- إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ:

هذه السبيكة هي من السبائك التي تتكرّر في القرآن، ميزاناً ولفظاً، مرّاتٍ عديدة، ولكنّها ظلّت مع ذلك حتّى الآن، ببنائها النحوي واللغويّ المميّز، قاصرةً على القرآن وحده، ولم تدخل معجمَنا الأدبيّ أو اليوميّ.

٥- فلهم أجرٌ غيرُ ممنون:

وهذه أيضاً من السبائك التي تتكرّر في القرآن أكثر من مرّة، ميزاناً ولفظاً. وعدا عن افتتاحها بشبه الجملة (فلهم) الخاصّ جدّاً بالقرآن الكريم، كما أثبتنا، فإنّ بناءها النحويّ العامّ بناءٌ قرآنيٌّ لا يشاركه فيه شعرٌ أو نثر.

٦- فما يكذّبُكَ بعدُ بالدّين:

لا تتحقّق خصوصيّة هذه السبيكة القرآنيّة بطبيعة الاستعمال الجديد والمميّز للفعل (يكذّب) وحدها، فهناك أيضاً الموقع المميَّز للظرف المقطوع عن الإضافة (بعدُ) الذي جاء ليفصل بين جزءَين للجملة (يكذّب) و (الدين) لم نعتد انفصال أحدهما عن الآخر في لغتنا، كما لا يتكرّر هذا الفصل في أيٍّ من الحالات الـ ١٧٦ الأخرى التي يتكرّر هذا الفعل بها في القرآن الكريم.

٧- أليس اللهُ بأحكَمِ الحاكمين:

نستطيع أن نتبيّن خصوصيّة هذه السبيكة، وتميّزها اللغويّ والنحويّ، ليس عن سبائكنا البشريّة فحسب، بل عن بقيّة السبائك المقاربة لها في القرآن كذلك،

لوعرضنا أقرب هذه السبائك إليها بناءً، وأجرينا بنظرنا مقارنةً سريعةً بين البنية اللغويّة والإيقاعيّة لكلٍّ منها، كما في الآيات الكريمة الآتية:

- ﴿ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ١٠]
- ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٨، والزُّمَر: ٣٢]
- ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزُّمَر: ٣٦]
- ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ [الزُّمَر: ٣٧]
- ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٤٠]

ولو استخدمنا مقياسنا الذي اعتمدناه في هذه الدراسة لنتبيّن الفرق بين سبيكة سورة (التين) والسبائك الخمس الأخرى، وهو يختلف عن، أو لا يتقيّد، بالمقياس العروضيّ كما سبق أن أوضحنا، لوجدنا ميزان الأولى هكذا:

أليس العامل بأعمل العاملين

على حين نجد موازين الآيات الخمس على الشكل التالي:

أوليس العامل بأعملَ بما في أعمال العاملين.

أليس في عملٍ معملٌ للعاملين.

أليس العامل بعاملٍ عملَه.

أليس العامل بعميلٍ ذي انعمال.

أليس ذلك بعاملٍ على أن يُعمِل العَمْلَى.

وهكذا اختلفت موازين السبائك الخمس الواحدة عن الأخرى، وكذلك اختلفت موازينها كلّها عن ميزان آية سورة (التين)، رغم تقارب السبائك الستّ جميعاً فيما بينها.

رابعاً: اللغة المنفتحة

١ إلى ٣- والتّينِ والزّيتونِ. وطورِ سينين:

عرفنا في مطلع دراستنا لهذه السورة أنّ لهذه الألفاظ معانيها الاحتماليّة العديدة، وأنّها شغلت المفسّرين وهم يحاولون إيجاد روابط فيما بينها، من ناحية، وفيما بينها وبين تاريخ البشريّة وتسلسل النبوّة من ناحيةٍ أخرى، كما فعل الإمام محمّد عبده -رحمه الله- في تفسيره، وكما فعل غيره من المفسّرين الّذين سبقوه، فقالوا:

(التّين) هو الجبل الذي عليه مدينة دمشق (قاسيون) حيث يعود المسيح إلى الأرض، و (الزّيتون) جبل القدس حيث الوحي والأنبياء، وقالوا:

هما جبلان بالشّام، وهما بالسّريانيّة: طور تينا، وطور زيتا، وسُمّيا كذلك، لأنّ فيهما منابت التّين والزّيتون، و (سينين) هو الشجر، أو المبارك والطيّب، وقالوا:

منبت ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ هو مهاجَر إبراهيم، ومولد عيسى ومنشؤه، و (الطّور) هو المكان الذي نوديَ منه موسى، و ﴿ ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ هو مكان بيت إبراهيم، ومولد الرسول ومبعثه، وقالوا:

(التّين) مسجد دمشق و (الزّيتون) مسجد القدس، وقالوا:

(التّين) مسجد أصحاب الكهف، والزّيتون مسجد إيلْيا (القدس)، وقالوا:

(التّين) مسجد نوح المبنيّ على الجوديّ، وقالوا:

هذه محالٌّ ثلاثةٌ بعث الله في كلّ واحدٍ منها نبيّاً من أصحاب الشّرائع الكبار: فالأوّل (محلّة التّين والزّيتون) وهي بيت المقدس حيث بُعث عيسى، والثّاني (طور سينين، أو: سيناء) حيث كلّم الله موسى، والثّالث (البلد الأمين) أي مكّة، حيث بُعث محمّدٌ ﷺ.

والباب ما يزال مفتوحاً لمزيدٍ من التأويلات المقبلة.

٤- في أحسنِ تقويم:

إنّ لفظ (تقويم) هنا، وقد انفردت به هذه السورة كما رأينا، يتّسع لأكثر من معنىً مقترح:

فذهب بعض المفسّرين إلى أنّه (الاستقامة بشكلٍ عموديّ) لأنّ الله خلق الإنسان مستوياً، وخلق بقيّة الحيوان منكبّاً على وجهه،

وذهب آخرون إلى أنّه (استقامة العقل)؛ لأنّ الله خلق الإنسان مهديّاً بالتمييز، مؤدّياً للأوامر، مزيّناً بالعقل،

وقال آخرون: إنّها استقامة الشكل، فقد خلقه الله في أحسن صورةٍ وبناء، ولذلك قال بعض الفلاسفة: إنّ الإنسان هو العالَم الأصغر؛ إذ جُمع فيه كلّ ما في المخلوقات.

ولا يمكن التشبّث بمعنىً واحدٍ وإهمالِ ما دونه، حتّى إن استقصينا أقرب المشتقّات إلى هذا اللفظ في القرآن الكريم لنستنير بمعانيها، فهي متنوّعة الدّلالات إلى حدٍّ كبير، كما يمكن أن نتبيّن من قراءتنا السريعة لهذه الآيات:

- ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ [الرّوم: ٢٥]
- ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرّحمن: ٩]
- ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥، وآل عِمران: ٢]
- ﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]
- ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البيّنة: ٥]
- ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧]

وأرى أنّ معاني (حسن الحساب والتقدير، والإتقان، والدقّة، والتوازن، والعدل) كلّها يمكن أن تدخل في معاني اللفظ على ضوء ما نرى من معاني مشتقّاته في هذه الآيات.

٥- رددْناه:

يحمل هذا الفعل، مستقلاً بذاته، أكثر من معنىً:

فهو بمعنى (أرجعناه): أي أعدناه في هرمه إلى مثل ما كان عليه من الضعف والعجز وهو صغير، أو ربّما وهو علقة، أو هو بمعنى:

(قَلَبناه): أي حوّلناه من حالٍ إلى حال، فغدا تراباً لا قيمة له، بعد أن كان إنساناً في أحسن صورة.

وسياق الآية يقبل أيّاً من المعنيين، فيختلف معنى الآية باختلاف معنى الفعل.

٦- أسفلَ سافلين:

يتغيّر معنى هذا التركيب، ليس باختلاف معنى الفعل (رددناه) فحسب، بل بإمكان تحرّك الذهن في أكثر من اتّجاه وهو يحاول تفسير هذا (الأسفل)، ولهذا قال بعض المفسّرين:

- إنّه أرذل العمر، حين يدرك الإنسانَ الهرمُ ويبدأ بفقدان قواه الجسميّة والعقليّة، وعلى هذا يكون الاستثناء الذي يليه في (إلاّ) منقطعاً عمّا قبله؛ إذ لا يمكن أن نستثني الذين آمنوا من ظاهرة الهرم والضعف والشيخوخة، فهم وغير المؤمنين فيها سواء،
- وقال آخرون: بل هو العذاب وجهنّم، وعلى ذلك يكون الاستثناء بعده متّصلاً، إذ يمكن استثناء المؤمنين من دخول جهنّم،
- وقال آخرون: هو الضلال، فالاستثناء في هذه الحال متّصل أيضاً.

والغريب أنّ ما لم يقل به أحدٌ من المفسّرين، فيما قرأت على الأقلّ، هو أنّ هذه العودة إلى ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ قد تكون الارتداد إلى التراب حيث ينتهي الإنسان كما بدأ: تراباً حقيراً يدوسه الناس والدوابّ، وقد كان من قبل في أحسن

بناءٍ وأجمل صورة. فأمّا المغضوب عليهم فيتحوّلون من التراب إلى العذاب، وهو عذابٌ مقيمٌ يتمنّى أحدهم معه أن يعود تراباً، إذ لم يكن يتصوّر وجود ما هو أسفل وأصعب من أن يكون تراباً: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ [النبأ: ٤٠]، وأمّا الذين آمنوا فيُردّون إلى جنّة أبيهم آدم، لتكون لهم هناك حياةٌ أبديّةٌ و ﴿ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ كما في ختام السورة.

٧- أجرٌ غير ممنون:

يتّجه المفسّرون في فهم هذا التعبير على الأغلب إلى أنّه الخلود في الجنّة، ولكنّهم اختلفوا، مع ذلك، في شرح اللفظ (ممنون)، اختلافاً قد ينعكس على معنى التعبير بكامله. وهكذا ذهبوا في تفسير التعبير مذاهب شتّى، فقالوا إنّه:

الأجر غير المقطوع في الجنّة،

وقالوا: إنّه الأجر غير المنقوص،

وقالوا: إنّه الأجر الذي لا يُمَنّ به عليهم،

وقالوا: إنّه الأجر بغير حساب.

٨- فما يكذّبكَ بعدُ:

رغم أنّ اسم الاستفهام (ما) يستعمل عادةً لغير العاقل، لأنّ اسم الاستفهام الآخر (مَن) هو المختصّ بالعاقل، فإنّ هذا لم يمنع بعض المفسّرين من القول بأنّه هنا بمعنى (مَن)، أي:

مَن يكذّبك يا محمّد بعد كلّ هذا؟

أمّا إذا كانت (ما) لغير العاقل حقّاً فيكون المعنى:

ما قيمة هؤلاء الذين يكذّبونك يا محمّد؟ أو:

ما الذي يجعلك أيّها الكافر تكذّب بالدين.

ورغم ما ذكرناه من المعنى المتميّز للفعل (يكذِّبك)، وانفراده بمعنى (يجعلك تكذّب) دون سائر الأفعال المشابهة في القرآن، فقد ذهب الذين يرون أنّ (ما) للعاقل إلى أنّ الفعل هنا جاء بالمعنى التقليديّ له (ينكر رسالتك، أو: لا يؤمن بك). وذهب الزمخشريّ إلى أن المعنى: ما الذي يجعلك كذّاباً، بسبب الدّين وإنكاره، بعد هذه الأدلّة؟

أمّا الظرف (بعدُ) فيكتسب قوّته الانفتاحيّة من قطعه عن الإضافة. فلو قال:

بعد ما سمعت، أو:

بعد ما رأيت، أو:

بعد الآن،

لانحصر الظرف بواحدةٍ من هذه الحالات، ولكنّه الآن يمكن أن يفسَّر بها جميعاً.

وهكذا نجد التعبير بمجمله مبنيّاً على موادّ انفتاحيّةٍ مختلفة العناصر تجعل منه واحداً من أهم المواقع المنفتحة في السورة.

٩- بالدّين:

عرفنا عند دراستنا للآية ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ في سورة (الفاتحة) المعاني المتعدّدة للفظ (الدّين)، وهذه المعاني، التي تتراوح بين الإسلام والقيامة والحساب والدينونة والجزاء، تضيف إلى الآية بمجملها رصيداً جديداً يغني معانيها الانفتاحيّة المحتملة.

١٠- أحكمِ الحاكمين:

تتعدّد المعاني التي يمكن أن يحملها الجذر (حكم) الذي اشتُقّ منه طرَفا هذا التعبير. فمن هذه المعاني (الحكمة) و (الحُكم) و (الإحكام). وقد تعدّدت تفسيرات التعبير القرآنيّ بعدد هذه المعاني، فقالوا:

إنّه خاتمةٌ للسورة جاءت لتطابق مقدّمتها، فقد ابتدأت بالحديث عن (خلْق الإنسان في أحسن تقويم)، وتنتهي الآن بالحديث عن (الإحكام) ودقّة الصنع

والإتقان المتفوّق،

وقالوا: إنّه أحكم الحاكمين قضاءً بالحقّ وعدلاً بين الخَلق،

وقالوا: إنّه وعيدٌ للكفّار بأنّه تعالى يحكم عليهم بما هم أهله، لتكذيبهم الرسول ﷺ.

ويمكن أن يحمل أيضاً معنى (أحكم الحكماء) الذي يعرف كلّ شيء كما لا يعرفه غيره، ويقوم على أمور الخلق بالحكمة الإلهيّة الكلّية.

خامساً: جوامع الكَلِم

١- البلد الأمين:

لقد غدا هذا الاسم ملازماً للبلد الحرام (مكّة المكرّمة) منذ أن أطلقه القرآن الكريم عليها في هذه السّورة.

٢- لقد خَلقْنا الإنسانَ في أحسنِ تقويم:

هذه جامعةٌ من جوامع الكلِم يمكن أن نطلقها في أي موقفٍ يتطلّب منّا أن نعلّق على قوّة الإنسان الجسميّة أو العقليّة، وكذلك ما خلقه الله عليه من كمالٍ أو جمالٍ أو حكمةٍ أو علم.

٣- ثمّ رددناه أسفلَ سافلين:

على عكس الآية السابقة، تتردّد هذه الآية على لساننا ونحن نشاهد نهاية حياة ذلك الإنسان القويّ أو الطاغية أو الكبير أو العالم أو الحكيم، وهو ينتهي إلى خاتمةٍ مؤسفة، أو حين ينتهي أجله ويلقى نهايته المحتومة، فيوارى في مثواه الأخير حيث التراب والفناء.

٤- فما يكذّبك بعدُ بالدّين:

٥- أليس اللهُ بأحكمِ الحاكمين:

هاتان تسبيحتان قرآنيّتان قد يطلق أحدنا أيّاً منهما حين يسمع بأعجوبةٍ من أعاجيب العلم، وهو يكشف عن معجزات الله في خَلقه، أو يرى حكمَ الله وقضاءه العادل يَنفُذ فيمن ظَلم أو سرق أو اعتدى أو أجرم بحقّ الآخرين.

* * *

وبعد. فإنّني لا أرى ما أختم به هذا البحث، الذي لا أرى لمحيطه الممتدّ شاطئاً، أبلغ من كلمات الزركشيّ في مقدّمته لكتاب (البرهان في علوم القرآن) وهو يصف واقع من يرود آفاق القرآن ويجوب بحاره منقّباً ومكتشفاً:

واعلمْ أنّه ما مِن نوعٍ من هذه الأنواع إلاّ ولو أراد الإنسانُ استقصاءه لاستَفرغ عمرَه ثمّ لم يُحكِم أمرَه، ولكنِ اقتصرنا من كلّ نوعٍ على أصولِه، والرمزِ إلى بعضِ فصولِه، فإنّ الصناعةَ طويلةٌ والعمرَ قصير، وماذا عسى أن يَبلغ لسانُ التقصير.

والحمد لله ربّ العالمين